اغنية بابلية

مدينة بلا مطر!

« رموز القصيدة :

« تموز اله الخصب عند البابليين . صرعه خنزير بري . ولكنه ينبعث كل عام »

« فتنبعث معه الحياة بعد هجمة الشتاء. وحدائق تموز : اصص وجرار فخارية »

« عشتار ـ الهة الحب والخصب .. وهي حبيبة تموز ، تعود الى الارض بعودته »

✶

مدينتُنا تؤرّق ليلَها نارٌ بلا لَهَبِ .
تُحَمُّ دروبُها والدُّور ، ثم تزول حمَّاها
ويصبغها الغروبُ بكلّ ما حملتْه من سُحُب
فتوشك أن تطيرَ شرارةٌ ويهبّ موتاها :
« صحا من نومه الطينيّ تحت عرائش العِنَبِ ..
صحا تمّوزُ ، عاد لبابلَ الخضراءِ يرعاها . »
وتوشك أن تدقّ طبولُ بابلَ ، ثم يغشاها
صفيرُ الريح في أبراجها وأنينُ مرضاها .
وفي غُرُفات عُشْتارِ
تظل مجامر الفخّار خاويةً بلا نارِ ،
ويرتفع الدعاءُ ، كأن كلّ حناجر القَصَبِ
من المستنقعات تصيح :
« لاهثةً من التَعَبِ
تؤوب إلٰهةُ الدمِ ، خُبْزُ بابلَ ، شمسُ آذارِ .
ونحن نهيم كالغرباء من دارٍ إلى دارِ
لنسألَ عن هداياها .

جياعٌ نحن.. واأسَفَاه ! فارغتان كفَّاها ،
وقاسيتان عيناها
وباردتان كالذهب .
سحائبُ مُرْعداتٌ مُبْرقاتٌ دون إمطارِ
قَضَيْنا العامَ ، بعد العام ، بعد العامِ ، نرعاها ،
وريحٌ تُشبه الاعصار ، لا مرّت كإعصارِ
ولا هدأتْ ـ ننام ونستفيقُ ونحن نخشاها .
فيا أربابَنا المتطلعين بغَيْرِ ما رَحْمَه ،
عيونُكم الحجارُ نُحِسُّها تنداح في العتمه
لترجمنا بلا نقمه ؟
تدور كأنهنّ رحىً بطيئاتٌ تلوكُ جفونَنَا ..
(حتىّ ألفْناها ،
عيونُكم الحجار كأنّها لَبِناتُ أسوارِ
بأيدينا ، بما لا تفعل الأيدي ، بنيْناها .
عذارانا حزانى ذاهلاتٌ حول عُشْتارِ
يغيض الماء شيئاً بعد شيء من محيَّاها ،

وغصناً بعد غصنٍ تذبل الكرْمه .
بطيءٌ موتُنا المتْسلُّ بين النور والظلْمه ،
له الويلاتُ من أسدٍ تُكابد شدْقَه الأدرد !
أنارُ البرق في عينيه أم من شُعْلة المعبد ؟
أفي عينيه مبخرتان أوجرتا لعشتار ؟
أنافذتان من ملكوت ذاك العالَم الأسود :
هنالك حيث يحمل ، كلَّ عامٍ ، جُرْحه الناريَّ ،
جُرْحَ العالَم الدوّار ، فاديه
ومنقذُه الذي في كلِّ عامٍ من هناك يعود بالأزهار
والأمطار – تجرحنا يداه لنستفيقَ على أياديه ؟
ولكن مرّتِ الأعوامُ ، كُثْراً ما حسبناها ،
بلا مطرٍ .. ولو قطْرَه
ولا زهرٍ .. ولوْ زهره
بلا ثمرٍ – كأنّ نخيلَنا الجرداءَ أنصابٌ أقمناها
لنذبلَ تحتَها ونموت .
سيّدُنا جفانا . آهِ يا قبرَه
أما في قاعك الطينيِّ من جرَّة ؟
أما فيها بقايا من دماء الربّ .. أو بَذْرَه ؟
حدائقه الصغيرةُ أمس جئنا فافترسناها :
سرقنا من بيوت النمْل ، من أجرانِها ، دُخْناً
(وشوفاناً
وأوشاباً زرعناها
فوفَّيْنا – وما وفّى لنا – نَذْرَه ! » .

*

وسار صغارُ بابلَ يحملون سلالَ صبّارِ
وفاكهةٍ من الفخّار ، قرباناً لعشتارِ
ويُشعل خاطفُ البَرْقِ ،
بظلٍّ من ظلال الماء والخضراء والنار ،
وجوهَهم المدوَّرةَ الصغيرةَ وهي تستسقي .
فيوشك أن يفتّحَ – وهي تومضُ – حقْلُ نوّار .
ورفٌّ – كأنّ ألف فراشةٍ نثرتْ على الأفْق –
نشيدُهم الصغيرُ :
« قبورُ إخوتِنا تنادينا
وتبحثُ عنك أيدينا
لأنّ الخوفَ ملْءُ قلوبنا ، ورياحَ آذارِ
تهزُّ مهودنا فنخاف . والأصواتُ تدعونا .
جياعٌ نحن مرتجفون في الظّلْمه
ونبحث عن يدٍ في الليل تُطعمنا ، تغطّينا ،
نشدّ عيونَنا المتلفّتات بزندها العاري .
ونبحث عنك في الظلماء ، عن ثدييْنِ، عن حُلْمه
فيا من صدرُها الأفق الكبير وثديُها الغيْمه
سمعتِ نشيجنا ورأيتِ كيف نموت.. فاسقينا !
نموت ، وأنتِ – والأسفاه – قاسيةٌ بلا رحمه .
فيا آباءنا ، من يفتدينا؟ من سيُحيينا ؟
ومن سيموت : يُولِمُ لحمَه ودماءَه فينا ؟ »

وأبرقت السماءُ كأنّ زنبقةً من النارِ
تفتّح فوق بابلَ نفسَها . وأضاء وادينا ،
وغلغلَ في قرارة أرضنا وهَجٌ فعرّاها
بكلِّ بذورِها وجذورها وبكلِّ موْتاها .
وسحٌّ – وراءَ ما رفعتْه بابلُ حول حمّاها
وحول ترابها الظمآن ، من عَمَدٍ وأسوارِ
سحابٌ .. كان لولا هذه الأسوار روّاها !
وفي أبدٍ من الأصغاء بين الرعد والرعدِ
سمعنا ، لا حفيفَ النّخل تحت العارض السحّاحِ
أو ما وشْوشَتْه الريحُ حيث ابتلّت الأدواحْ ،
ولكنْ خفقةَ الأقدام والأيدي
وكركرةً و « آهَ » صغيرةٍ قبضتْ بيُمناها
على قمرٍ يرفرفُ كالفراشةِ ، أو على نجْمه ...
على هبةٍ من الغيْمه ،
على رعشات ماء ، قطرةٌ همستْ بها نسْمه
لنعلم أنّ بابلَ سوف تُغسَل من خطاياها !

بغداد — بدر شاكر السياب